**سارة أ. روجرز**

*عرب الصبيح والوادي*
حاضر الماضي

كرسيٌّ خالٍ أبيض يتكئ على جدار إسمنتي حيث يمتد مقصف فلسطيني مفتوح يعلن عن تقديم الشاي والقهوة والكابوتشينو [ص ٧٥]. مقابل ذلك الجدار كشك يقدم القهوة مع أكوام من أقداح بيضاء بلاستيكية صغيرة الحجم. يشيع من المقصف الفلسطيني، لحظة التقاط صورته في أثناء الاستراحة، فراغ مُقفر. مع ذلك، فالسكون الهادئ هو بالضبط ما يتيح للنص المكتوب على الجدار أن يهمس بموضوع الصورة: ذكرى فلسطين الملحّة والدائمة في خضم شتاتها.

صورة المقصف الفلسطيني هذه لأحلام شبلي ليست غير جزء من مجموعة لقطات فوتوغرافية بعنوان *عرب الصبيح* (٢٠٠٧)، وجميعها تدور حول حكاية اللاجئين الفلسطينيين الذين طُردوا من قرية عرب الصبيح في العام ١٩٤٨، وهم يقيمون على امتداد أجيالهم الثلاثة في مخيم اللاجئين في مدينة إربد وضواحيها في الأردن. وهي، إذ تختار لموقع كاميرتها زوايا ومسافاتٍ مختلفة، فإن شبلي تقدم صورة المشهد الطبيعي؛ صبي يركض في الشارع؛ أفراد داخل بيوتهم؛ قبور جماعية؛ مدارس، ولقطات هي الأشد إيلاماً تظهرها الصور الفوتوغرافية للعائلات. بعض الصور يمسك بلحظة خاطفة فقط — شاب يزيح الستارة ليسمح لضوء الشمس بالانتشار داخل الغرفة، مجموعة طالبات يمشين داخل مدرسة «عبد الله» للطلبة المتميزين، في إربد. وفي الطرف المقابل، آخرون يصورون مشهداً غير محدد بزمن — موديل أزياء ساكن بجمود امام نافذة متجر، أو مقبرة للشهداء في إربد. وهناك صور تقف شاهداً على موقع ذي أهمية تاريخية كالملجأ الذي شيّده شيخ عرب الصبيح المنفي في إربد، لإيواء أشخاص من مناطق الجوار خلال الحرب العربية الإسرائيلية في العام ١٩٦٧. ثمة صور أخرى توثّق الإشارات الدنيوية الجميلة للحياة اليومية — شابان يدخنان النرجيلة ويجلسان في مقهى يرفع العلم الفلسطيني. فالصور، إذا ما نظرنا إليها بالتسلسل، تروي حكاية بصرية عن شتات الفلسطينيين الذين يحققون ذاتهم في الحاضر من خلال الإحياء اليومي للذكريات.

صورة المقصف الفلسطيني، التي التقطت في مخيم البقعة الواقع بجوار مدينة عمّان، ما هي إلا مجموعة ثانوية من اللقطات الفوتوغرافية التي تقدم صورة لمنشآت تجارية صغيرة، سمّيت بأسماء فلسطينية، أو باسم المدينة أو القرية التي ولد فيها مالكها. في نموذج آخر، على سبيل المثال، تصوّر شبلي مركز القدس التجاري في مخيم اللاجئين في إربد [ص ٧٧]. ومن خلال اختياراتها الفنية، كما هو الحال في تصوير المقصف الفلسطيني، تثير أحلام شبلي انتباه المشاهد إلى استخدام اللغة بوصفها وسيلة لإنعاش الذاكرة: تصوير المنشأة خلال ساعات الفراغ؛ تحديد الزاوية التي تلتقط منها صورة النص المكتوب؛ طباعة

الصورة بالأبيض والأسود. وفي فعل طارئ محض شعري، فإن تقشّر طلاء الحائط خلف عبارة «مركز القدس» يوقظ في الذاكرة محيط الخريطة الفلسطينية. من خلال هذه المجموعة من الصور الفوتوغرافية التي تصوّر المحال التجارية الحاملة مسمَّيات فلسطينية، تكشف شبلي أن كلاً من اختيار الأسماء وتصويرها معاً، ما هو إلا شهادات على الحضور المتغلغل للماضي وأمله الباني للمستقبل. وبهذا الشكل، فإن *عرب الصبيح* عمل يمسك بالقضايا المعقدة المتزامنة التي يعيشها فلسطينيو الشتات بوثائق مؤقتة مختلفة، في حين أن إقامة المؤسسات – دكاكين، ومدارس، ومقابر – والنشاطات اليومية المختلفة للحياة اليومية التي تصفها شبلي من خلال كاميرتها، تشير نوعاً ما إلى الاستثمار والإنتاجية داخل نطاق البلد المضيف، وإلى الذكريات المتواصلة لما يشير إلى ماضي فلسطين والأمل بالعودة إلى الوطن.

يشير عنوان المجموعة *عرب الصبيح* إلى تاريخ عائلة الفنانة المنتشرة عقب النكبة. إن هؤلاء المنحدرين أصلاً من قرية عرب الصبيح (حالياً تحت الحكم الإسرائيلي) تفرقوا جغرافياً في نكبة العام ١٩٤٨، وهكذا عانوا من مصيرين مختلفين. بعد انتهاء الحرب، أُبعد الجزء الأكبر من سكان عرب الصبيح من قبل المقاتلين اليهود، فلجأوا إلى سوريا والأردن، بينما لاذ الآخرون بدير جبل طابور الواقع في أعلى قرية عرب الصبيح. حافظ المنفيون منهم على الاسم الأصلي، عرب الصبيح، في حين أُجبر من بقي داخل فلسطين التاريخية على تغيير اسم القرية لتصبح عرب الشبلي، وذلك للحيلولة دون قيام السلطات الإسرائيلية بالعودة إلى العمليات الانتقامية.

إن نتائج البقاء على أرض الوطن تحت التشريعات الإسرائيلية اليوم هو موضوع المجموعة الثانية لأحلام شبلي بعنوان *الوادي* (٢٠٠٧–٠٨)، وفي اختيار العنوان إشارة إلى المشهد الطبيعي الذي وفّر لعرب الشبلي حماية تاريخية خلال الحرب. لقد عرض الموضوعان معاً في معرضها الشخصي الاول في العالم العربي بعنوان «لماذا تركتم الغابة فارغة؟!»، الذي أُقيم في دارة الفنون في عمّان، ٢٠١٠؛ وهو يروي حكاية بصرية شعرية وتاريخية مركبة عن تأثير الاحتلال الإسرائيلي على حياة الفلسطينيين اليوم، سواء أكانوا تحت الحكم الإسرائيلي أم في المنفى.

تحرك أحلام شبلي كاميرتها لدى تصوير موضوعها *الوادي* بمعزل عن المشاعر الحميمة التي صوّرت من خلالها مخيمات اللاجئين في مجموعة *عرب الصبيح*، كالأجواء الداخلية للبيوت والمقاهي وأرصفة الشوارع والصور العائلية. وبدلاً من ذلك تظهر الفنانة المنظر الطبيعي للأرض. هذه الصور الفوتوغرافية (الملونة منها، أو بالأبيض والأسود) تظهر هنا وهناك وصفاً للشكل الخارجي للبيوت – وهي في أغلب الأحوال منعزلة – ومركز

القرية بكل ما يحتويه من إشارات باللغة العبرية والأعلام الإسرائيلية. لعل حضور اللغة هنا قد استخدم للتشديد على سلطة الأرض، بوصفها نقيضاً حاداً لطبيعة استخدامها في مخيمات اللاجئين في الأردن، حيث تشكّل جسراً يربط الحاضر بالماضي – أرض الوطن. فاختلاف السلطة المدنية ما بين المجتمعين الفلسطينيين توثّقه اللغة ويؤكّده المشهد المعماري. مثال على ذلك، غالباً ما يشيّد أهل عرب الشبلي بيوتهم على بعد مسافة من جيرانهم، بينما يميل اللاجئون إلى التجمّع للتعبير عن الاتكال على الجماعة. فضلاً عن ذلك، فإن العمارة في عرب الشبلي أخذت تكتسب صفات إسرائيلية، اعترافاً بالتقارب اليومي. وقد وضّحت أحلام شبلي، في حديثها الذي أدلت به في دارة الفنون، الفرق الأولي بين فلسطينيي عرب الصبيح وعرب الشبلي من خلال المفهوم المتناقض للوطن: لقد فقد أهل عرب الصبيح بيوتهم، مع ذلك تشبثوا بمعنى من معاني الانتماء إلى الوطن عن طريق ما تحمله الذاكرة عن فلسطين نائية؛ وبقي أهل عرب الشبلي داخل الأرض، وهم قادرون على تشييد منازلهم، ولكنهم أُجبروا بالمقابل على التخلي عن انتمائهم القومي وعن اسمهم ووطنهم.

يشهد معرض *عرب الصبيح والوادي* على اهتمام شبلي بتقديم رؤية بصرية عن أثر النكبة على الشعب الفلسطيني، وبخاصة على أولئك الذين أُزيحوا عن الخريطة. فالصور الفوتوغرافية تمسك بحاضر الوضع التاريخي وتكشف عنه؛ وهو، نظراً إلى الظروف الخاصة بالفلسطينيين، وضع ينهمك بالكشف عن حالة وجود يعاني من اضطراب متواصل لمقاومة المحو والاضطهاد. وبهذه الطريقة يؤدي السرد دوراً ذا أهمية رمزية. وهذا ما تعزز بالاختيار الفني لعرض الصور في مجموعات متسلسلة. يقيناً، أن اشتراك موضوعي *عرب الصبيح والوادي* في صالة عرض واحدة يخبرنا عن التأثيرات المتباينة للنكبة. فبناء المجتمع، في حالة اللاجئين، يلتف حول الذاكرة ووثائق فلسطين والمخيلة البصرية ومفردات الحياة الاجتماعية لفلسطين ما قبل ١٩٤٨، بينما يحدد حضور الاحتلال الإسرائيلي في قرية عرب الشبلي بنية الحياة – موقع أرضها وعمارتها وإشارات شوارعها. من الناحية الرمزية، فإن هذه الاختلافات، كما تتجلى في أعمال شبلي، تعتمد على الفكرة ذاتها لموقع الأرض والصراع من أجل تحديد شكل لوجود ما داخل الظروف الحالية. تستحضر أحلام شبلي المنظر الطبيعي في *الوادي* لتهمس بتاريخ النكبة وحضورها الكلّي في الزمن الحاضر. وتُردد هذه القصص في *عرب الصبيح* من قبل الجماعة وممارساتهم الاجتماعية، وبخاصة في استخدام الأسماء.

لدى عرضهما معاً في دارة الفنون، فإن *عرب الصبيح والوادي* وجدا بلا شك وطناً لهما.

# أحلام شبلي

## اذهبْ هناك، التهمْ الجبل، اكتبْ الماضي

***قوطر***
***عرب الصبيح***
***الوادي***

نصوص من محمود أبو هشهش،
أولريش لوك، وسارة أ. روجرز

مؤسسة خالد شومان
دار الفنون